

الدرس السابع عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم إنا نسألك علماً نافعاً وعملاً صالحاً ورزقاً طيباً . قال الإمام شيخ الإسلام محمد ابن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له والشرح والسماعين :

باب ما جاء في غربة الإسلام وفضل الغرباء

وقول الله تعالى ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ الآية [هود: ١١٦] .

قال المصنف رحمه الله : ((باب ما جاء في غربة الإسلام وفضل الغرباء)) ؛ ما جاء في غربة الإسلام: أي ما جاء في نصوص السنة من دلالة على أن الإسلام يؤول أمره إلى غربة كما أن بدؤه كان في غربة ، حيث إن الإسلام بدء غريباً وسيعود كذلك غريباً . والغريب : هو الرجل الذي غادر وطنه وبلده إلى مكان آخر لا يعرف فيه أحداً ، ولهذا جاء في الحديث: ((كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ)) ؛ الغريب هو الذي يدخل بلدًا ليس له فيه معرفة ، لا يعرفه الناس ولا يعرف الناس ، من يراه لا يعرفه ، وهذا أيضًا شأن الإسلام عندما يكون غريباً يصبح من يعرفه قلائل من الناس ، وأكثر الناس ينكرونه ويجهلونهم ويعادونه ويعادون أعماله وخلالها ؛ فيكون أمره غريباً ، وأمر أهله المحافظين عليه المستمسكين به الغربة كذلك ، فيكون الإسلام غريباً ويكون أهله غرباء ، وقد جاء في الحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام ما يدل على فضل الغرباء وعظيم ثوابهم عند الله ﷻ .

وإيراد المصنف رحمه الله لهذه الترجمة في كتاب «فضل الإسلام» لبيان هذه الفضيلة المخصوصة للإسلام في حق من حافظ عليه وقت غربته وأن له عند الله ﷻ ثواباً عظيماً ، فالإسلام له فضائل عظام كثيرة ويختص بمزيد فضائل عندما يكون أمره بين الناس غريباً ، فالمستمسك به في هذه الحال شأنه كالقابض على الجمر وثوابه عند الله تعالى عظيم ، ولأجل ذا عقد المصنف هذه الترجمة لبيان فيها أن الإسلام يعود غريباً ، وأن ثواب الاستمسك به والمحافظة عليه وقت غربته أعظم وله ثوابٌ مخصوص ، من كان استمسكه بالدين كالقابض على الجمر من كثرة الأعداء وكثرة المنفّرين وكثرة الشائنين ويكون مستمسكاً معتصماً محافظاً فهذا له ثواب عند الله ﷻ عظيم ؛ ولهذا عقد المصنف رحمه الله هذه الترجمة في باب فضل الإسلام .

قال : ((باب ما جاء في غربة الإسلام وفضل الغرباء)) ؛ وهو في هذه الترجمة سيتحدث عن أمرين، الأمر الأول: غربة الإسلام؛ أي أن الإسلام سيعود غريباً كما بدأ غريباً .

وحتى تستحضر عود الإسلام غريباً كما بدأ تفكر في بدئه غريباً ؛ كيف كان أمر الإسلام ؟ جاء في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال ((إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَّتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)) ؛ أبغضهم أي قاطبة . في خضم هذه الظلمة المغطية لأرجاء هذه الأرض بدأ الإسلام ، وأول من بدأ بالإسلام دعوة إليه ونصرة له ونشراً له هو نبينا ﷺ ؛ فبدأ وحده يدعو إلى الإسلام الصحيح ودين الله القويم الذي نزل عليه بالوحي ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ [الأنبياء:٤٥] ، ثم آمن معه نفر قلائل ، وأول من آمن هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه ثم آمن أيضا بلال وقلائل من الصحابة ، قلائل هم الذين أسلموا في بادئ الأمر وكان شأنهم في غربة ، هم غرباء لكن بين من ؟ يمشي جنباً إلى جنب مع والده وأمه وأخته وأخيه وعمه وخاله وجاره وهو في الوقت نفسه غريب ، غريب بين أهله ، مثله مثل شخص دخل بلد لا يعرف فيها أحد وكل من رآه أنكره ، هكذا بدأ ، وكانوا قلائل الذين كانوا مع النبي ﷺ ، حتى أنه عليه الصلاة والسلام في بدء الأمر لما سُئِلَ عَمَّنْ أَسْلَمَ معه قال : ((أسلم حر وعبد)) ؛ الحر أبو بكر والعبد بلال . وبدأ الإسلام يتزايد الداخلون فيه والمهتدون إليه ويتكاثر عددهم يوماً بعد يوم حتى دخل الناس في دين الله أفوجاً ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [سورة النصر] .

فبدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ ؛ أي كما أنه بدأ غريب فستعود له غربته ، ثم ينتهي آخر الأمر عندما يبعث الله ﷻ رجلاً تقبض روح كل مؤمن ومؤمنة فلا يبقى إلا شرار الخلق ((مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءُ)) ، و ((لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ اللَّهُ اللَّهُ)) ؛ ينتهي الإسلام ولا يكون له وجود، فيبدأ أمر الإسلام إلى الغربة ثم بعد ذلك تُرسل الريح التي تقبض روح كل مؤمن ومؤمنة فلا يبقى على وجه الأرض إلا شرار الخلق عند الله ﷻ وأولئك الذين تقوم عليهم الساعة .

فالإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً ، وإخبار النبي عليه الصلاة والسلام -وهذا أهم أمر في هذا الموضوع- بعودة الإسلام غريباً ثم قوله ((طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ)) كما سيأتي ماذا يعني هذا ؟ يعني حض الناس ودعوتهم نصحاً منه ﷺ إلى مجاهدة النفس على الاستمساك بالدين في كل وقتٍ وحينٍ ولا سيما وقت الغربة ، ولا يستوحش الإنسان من قلة السالكين ولا يغتر أيضا بكثرة الهالكين ، بل يجاهد نفسه على الاستمساك بدين الله تبارك وتعالى، فإخبار النبي عليه الصلاة والسلام بعود الإسلام غريباً كما بدأ هذا جاء على وجه النصيحة للناس أن يحرصوا على الاستمساك بدينهم والمحافظة عليه في كل وقت وحين ولا سيما عندما يكون الإسلام غريباً فتكون المحافظة عليه أمرها أشد ، والاعتصام به أمره أعظم .

قال : ((وقول الله تعالى ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾)) ؛ هذه الآية ساقها المصنف مشيراً بها إلى معنى الغربة الذي جاء إشارة إليه وذكر في القرآن ؛ وهو أن يكون أهل الحق المستمسكين به الداعين إليه قلائل بين خلق كثيرين ، ففي الآية إشارة إلى هذا المعنى ولفت انتباه إليه وبياناً لعظيم ثواب من كانوا كذلك ، ففيها إشارة إلى فضل الغرباء وعظيم ثوابهم عند الله ﷻ .

وقوله ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ أي : هلأ وجد من أهل القرون الماضية ، ﴿ أُولُو بَقِيَّةٍ ﴾ يعني بقايا ﴿ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ ﴾ حال كثرة الفساد وانتشاره وكثرة الدعاة إليه ينهون عن الفساد في الأرض ؛ بقايا من أهل الخير والفضل أهل الدعوة إلى الله والنصح لدينه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

﴿ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ ﴾ ؛ وليتنبه هنا إلى لفظة مهمة في الآية : أن الدعوة إلى الله ﷻ كما أنها أمرٌ بالمعروف فهي نهيٌ عن المنكر ، النهي عن المنكر جزء من الدعوة إلى الله ﷻ ، خلافاً لما يتوهمه بعض الناس أن في الأمر بالمعروف كفاية ويقولون يؤمر الناس بالمعروف وإذا نُشر فيهم المعروف زال المنكر ؛ هذا فهم خاطئ ، بل النهي عن المنكر لزم وقرين الأمر بالمعروف ، فالأمر بالمعروف مطلوب والنهي عن المنكر مطلوب ، والأمر بالمعروف يكون بالمعروف ، والنهي عن المنكر لا يكون بالمنكر ، بل لابد من الاعتدال في الأمر والنهي ، ويكون ذلك على وجه النصيحة للعباد ودلالاتهم على الخير وإنقاذهم من الشر والفساد .

قال : ﴿ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ ﴾ ؛ والمراد بالفساد في الأرض : أي بالمعاصي والذنوب واتباع الأهواء والشرك بالله ﷻ ، ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ [الأعراف: ٥٦] أي بعد أن أصلحها الله ﷻ ببعثة الأنبياء . ولك أن تتأمل هنا الجهود العظيمة التي بذلها نبينا محمد عليه الصلاة والسلام في نشر الدين الصحيح والمسلوك القويم والصراط المستقيم وصحابته معه ثم أنصار الدين من بعدهم من التابعين وأتباعهم ؛ كم جهود بُذلت وأوقات بذلت في سبيل نصرته الدين ؟ إذا تأملت ذلك تدرك الجناية العظيمة التي يرتكبها أئمة الضلال ودعاة الباطل وأهل الأهواء ؛ يفسدون في الأرض بعد أن أصلحها الله ﷻ ، فهذه جناية من أكبر الجنايات ووزر من أعظم الأوزار ، تُصلح الأرض ببعثة الأنبياء ونصرة الدين والنهي عن الفساد ويصلح حال الناس ويمشون في الأرض على السداد والاستقامة ثم يأتي بعد هذا الصلاح أقوام يفسدون الأرض ولا يصلحون!! فيكونون دعاة إلى الأهواء ، دعاة إلى البدع والخرافات ، دعاة إلى الضلال ، ينصرون البدع ويهّدون في السنن ، هذه جناية عظيمة ،

هذا فساد في الأرض بعد إصلاحها . والغرباء ضد هؤلاء ؛ الذين ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ ؛ بدعوة الناس إلى الحق وتحذيرهم من الباطل والصبر على ذلك .

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ ؛ وهذا موضع الشاهد للغة ، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي قلائل ، فهم الغرباء ، قد ذكر الله ﷻ ثوابهم وهو النجاة ، فالناجون هم وإن كانوا قلة ، الناجون هم وإن كانوا شخصاً واحداً . ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ ؛ فكانوا معتصمين بالله ثابتين على دينه دعاءً إليه إلى أن توفاهم الله ﷻ وهم على هذا الحال . أما من سواهم فما شأنهم ؟

قال : ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ ؛ شغلهم الترف واللهو ومُتَع الدنيا الزائلة وشهواتها الفانية وملذاتها المنقضية ، انشغلوا بها عما خُلقوا لأجله وأوجدوا لتحقيقه .

﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ : أي كانوا أهل إجرام ؛ أجرموا في حق أنفسهم وأجرموا في حق الناس وأجرموا في حق الأرض التي خلقهم الله ليمشوا عليها ؛ فكانوا يمشون على هذه الأرض التي خلقهم الله ﷻ ليكونوا عليها صالحين فتحولوا إلى أناسٍ يمشون على الأرض مفسدين ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٥٢] ؛ فكانوا مجرمين في حق أنفسهم وفي حق الناس وفي حق الأرض إفساداً وتخريباً وتغييراً وضياًعاً وانحرافاً وزيغاً ، هذا شأن أكثر الناس ، وقلائل الذين اعتصموا بالله تبارك وتعالى فهدهم الله إليه صراطاً مستقيماً ﴿وَمَنْ يُعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١] .

الشاهد من الآية الكريمة : أن فيها إشارة إلى حال أهل الغربة وعظيم ثوابهم عند الله تبارك وتعالى ، وأن النجاة لهم ، وما سواهم فهم أهل هلكة ، قد مر معنا قريباً قول مالك رحمه الله : «السنة سفينة نوح؛ فمن ركبها نجا ومن تركها غرق» ؛ من ركبها نجا ولو كان واحداً ، وهذا يفيد الإنسان أن لا يغتر بكثرة الهالكين ولا يستوحش من قلة السالكين، بعض الناس إذا عرف السنة وفهمها واقتنع بها وقامت عنده دلائلها وبراهينها الصحيحة الثابتة ثم ذهب إلى أهله ووطنه ووجد نفسه وحيداً في هذه السنة ومن حوله على خلافها يستوحش ، وربما ترك بعضهم السنة بسبب الاستيحاش ، وتجدد لا يراقب الله وإنما يراقب الناس ماذا قالوا عنه ؟ وأي شيء يقولون عنه ؟ فتجده مع شدة مراقبته للناس يترك السنة وهو مقتنع بها ، وربما يكون أمره أشد من أولئك الذين جهلوا بها؛ عرفها واقتنع بها وقامت دلائلها عنده ولكنه يدعها ولا يستمسك بها التفاتاً إلى حال أكثر الناس الذين هم على خلافها وعلى نقيضها ، وربما بعضهم أيضاً من هذا القبيل يشاركونهم في اجتماعاتهم المحدثة الباطلة ويمارسها معهم عن غير قناعه من باب "حتى لا يقال" ، وحتى لا يكون وحيداً فريداً ، وحتى لا يُنتقد إلى آخره . فالأمر يحتاج من الإنسان إذا عرف الحق أن يلزمه وأن يستعين بالله تبارك وتعالى حتى لو وجد نفسه في وطنه وبين أهله غريباً ليس أحد على

شيء مما هو عليه ؛ يصبر ويعتصم بالله ويسأل الله تبارك وتعالى العون والثبات والهداية والسداد وأن يهديه وأن يهدي به وأن يهدي له وأن ييسر الهدى له ، يسأل الله تبارك وتعالى ذلك ويلج عليه إلى أن يتوفاه الله ﷻ وهو على هذه الحال .

قال :

وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : ((بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ)) رواه مسلم .

قال : ((وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً)) أي إلى النبي عليه الصلاة والسلام .

((بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا)) ؛ بدء الإسلام غريباً من الابتداء ، ولهذا ذكر ما يقابل ذلك وهو العود ، بدأ من الابتداء ثم بعد ذلك سيعود إلى الغربة .

ومعنى بدأ غريباً : أي ابتداء الإسلام في الناس غريباً لا يعرفه أحد ، وعرفنا أن بدؤه كانت على يد رسول الله ﷺ ، صفى الله وخليله صلوات الله وسلامه عليه ، فبدأ الإسلام غريباً ، ثم تبعه قلائل من الناس أو أفراد كانوا في أول الأمر يُعَدُّون على أصابع اليد الواحدة ، ومن على وجه الأرض كلهم ينكر ذلك ، كلهم يرى أن ذلك ضلال ومنكر وأن الحق ما هم عليه وما عليه آبائهم ، بدأ غريباً ثم كتب الله ﷻ له ظهوراً ورفعة وعلواً ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣] ، ثم أخبر عليه الصلاة والسلام أنه سيعود غريباً كما بدأ ؛ وهذا ابتلاء من الله ﷻ وامتحان لعباده ، ولهذا نبه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله - كما في مجموع فتاواه في المجلد الثامن عشر في رسالة فيها شرح لهذا الحديث - إلى أن عود الإسلام غريباً لا يعني تركه ، وإنما عود الإسلام غريباً يعني قوة مجاهدة النفس على الاستمسك به ؛ إذ الأمر يحتاج إلى قوة مجاهدة ، فليس الإخبار عن عود الإسلام غريباً يعني ترك الإسلام ، لأن هذا الذي يتبادر إلى حال كثير من الجهلاء ؛ إذا كان الإسلام غريباً وليس عليه أحد تجدد كثير من الناس يقول أنا مع الناس حالي حالهم ، ((لَا يَكُونُ أَحَدُكُمْ إِمَّعَةً)) يكون حاله من حال الناس ، ما يرى الناس عليه يمضي عليه لا يريد أن ينفرد ، وربما بعضهم عبّر بـ "لا أريد أن أكون شاذاً" .

فقوله : ((وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا)) ؛ هذا فيه دعوته إلى شدة الاستمسك به وشدة مجاهدة النفس على المحافظة عليه لا أن يُترك الإسلام ، والنبي ﷺ أخبر بذلك ناصحاً من أجل أن يزيد الإنسان في مجاهدة لنفسه على حفظ الإسلام والمحافظة عليه .

قال : ((فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ)) ؛ قيل «طوبى» : الثواب العظيم ، وقيل الجنة ، وقيل الحسن ، وقيل أقوال عديدة وكلها صحيحة ، لأن طوبى موعود عظيم لله ﷻ يتناول كل خير في الدنيا والآخرة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ [الرعد: ٢٩] ، فلهم عظيم موعود الله ﷻ وكریم نواله في دنياهم وأخراهم ، وليس هذا ثوابٌ يختص بالأخرى بل كما قال ﷺ : ﴿ إِنِ الْآبِرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ [الأنفطار: ١٣] أي في دورهم الثلاثة ؛ نعيم في الدنيا ، ونعيم في البرزخ ، ونعيم يوم القيامة عندما يلقون الله ﷻ .

قال: ((فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ))؛ من هم ؟ هم الذين يستمسكون بالإسلام حال غربته ، وعندما يكون الإسلام في نفسه غريباً بين الناس - أي قلائل من الناس الذين يعرفونه - فإن المستمسكين به في هذه الحال يكونون غرباء ، ويكون المستمسك به غريباً ولو كان بين أهله ، ولو كان المجتمع الذي ولد فيه ونشأ وترعرع فيه . ثم أورد رحمه الله روايات للحديث فيها تفسير من هم الغرباء ، والذي رواه مسلم من الحديث هو هذا القدر بدون هذه الزيادة ، وقد جاء في أحاديث أخرى عنه صلوات الله وسلامه عليه تفسير الغرباء من هم ؟ ما صفتهم ؟ ، وهذا التفسير يعين المسلم المتأمل في هذه الأحاديث على تحقيق المعاني والصفات التي عليها أهل الغربة .

قال :

ورواه أحمد من حديث ابن مسعود ﷺ وفيه : ((قِيلَ مَنْ الْغُرَبَاءُ ؟ قَالَ التُّرَاعُ مِنَ الْقَبَائِلِ)) ، وفي رواية: ((الْغُرَبَاءُ : الَّذِينَ يُصَلُّحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ)) ، ورواه أحمد من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ وفيه : ((فَطُوبَى يَوْمَئِذٍ لِلْغُرَبَاءِ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ)) . وللترمذي من حديث كثير ابن عبد الله عن أبيه عن جده: ((فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصَلِّحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ سُنَّتِي)) .

هذه روايات ساقها المصنف رحمه الله للحديث فيها تفسير وبيان للغرباء ، من هم الغرباء ؟ ، وهذه الروايات اعتنى من قبل أهل العلم بجمعها في مصنفات لما في ذلك من فائدة للمسلم ولطالب العلم ، لأن النبي ﷺ قال ((أن الإسلام سيعود غريباً)) ، وقال ((طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ)) فالناصح لنفسه يتساءل من هم الغرباء؟ ما صفتهم؟ ما حليتهم؟ ما أعمالهم؟ يتساءل عن ذلك ليكون محافظاً وليكون مستمسكاً ، فكتبوا في ذلك كتابات نافعة جداً ، ومن أحسن ما كُتب في ذلك : كتاب الآجري رحمه الله وهو مطبوع ، وكتاب الحافظ بن رجب رحمه الله وهو مطبوع «كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة» ؛ رسالة صغيرة وضمتها فوائد في وصف حال الغربة ووصف حال الغرباء ، واعتنى بها في حديث عن هذا الأمر ساقه مبني على الأدلة وعلى كلام أهل العلم وعلى نقل الآثار عن سلف الأمة .

لأن الحديث عن الغربة أحياناً يخلط فيه الناس وتجد بعض من ابتلي بشيء من الأهواء يوظف أحاديث الغربة لنصر هواه ؛ وهذا أيضاً من المصائب وتأييد باطله أو فكره أو نحو ذلك ، وهذا مضرٌ بالناس ، لأن أحاديث

غربة الدين إذا وُظفت في أهواء معيّنة فهذا أيضاً من الخطورة بمكان على عوام الناس وجهالهم . وقد كان سنن السلف رحمهم الله في هذا الباب هو الحديث عن الغربة وبيان معانيها على ضوء الآيات والمأثور عن السلف ، لا أنهم يُقحمون تصوراتٍ يفهمونها أو أفكار يصلون إليها ثم يجعلون أحاديث الغربة متنزلةً عليها ؛ فهذا إشكال وإضرار بالناس في فهم أحاديث الغربة ، وأحاديث الغربة تُفهم على جادة السلف رحمهم الله وعلى ضوء الروايات التي وردت عن النبي ﷺ في بيان الغرباء وحالهم ، تُفهم الغربة من حال السلف وأعمالهم وصفاتهم وسنن الصحابة ومن اتبعهم بإحسان والنهج الذي كانوا عليه ، والدين الذي كان عليه الصحابة هو الدين إلى قيام الساعة ، «وما لم يكن ديناً زمن محمد ﷺ وأصحابه فلن يكون ديننا إلى قيام الساعة» .

الآجري رحمه الله في كتابه «الغرباء» وهو مطبوع كما قدمت قال : «معناه والله أعلم أن الأهواء المضلة تكثر - أي في الناس - فيضل بها كثير من الناس ، ويبقى أهل الحق الذين هم على شريعة الإسلام غرباء في الناس» ، هذا تفسير ذكره الآجري رحمه الله في كتابه «الغرباء» وأشار فيه أن الغربة تكون عندما تُتبع الأهواء ويكون للأهواء دعاة فتفشو في الناس وتنتشر ثم يبقى قلائل من الناس مستمسكين بالسنة غير مغترين بالأهواء والبدع ولا ملتفتين إليها ؛ فيكون حال أهل الغربة ويكونون هم الغرباء ((الَّذِينَ يَصْلُحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ)) ؛ يصلحون : أي بتمسكهم بالسنة ، إذا فسد الناس : أي بإتباعهم الأهواء . وهذا معنى الحديث الآتي.

ساق المصنف رحمه الله روايات فيها تفسير للغرباء من هم ؟

الرواية الأولى : ((قَالَ: النَّزَّاعُ مِنَ الْقَبَائِلِ)) ؛ النزاع : من ينزع من وطنه إلى وطن آخر ، وما سبب هذا الرحيل والانتقال من الوطن ؟ يرى أن وطنه وأهله وعشيرته وقومه والمجتمع الذي نشأ فيه مجتمع عم فيه الفساد وكثر فيه الشر وكثر فيه الضياع ، ويكون قلبه خائفاً على دينه مشفقاً على دينه ، يريد لدينه حفظاً وبقاءً ، ويجد المجتمع الذي حوله بدءاً ببيته وبيت جيرانه والبيوت التي حوله والناس الذين يمشون حوله يجدهم في ضياع ؛ إما أخذتهم الشهوات مأخذاً عظيماً ، أو تلقفتهم الشبهات فحرفتهم عن دينهم ، أو جُمع لهم بين الأمرين : شهواتٌ أفسدت أعمالهم وشبهات أفسدت عقائدهم وأديانهم ، فيعيش في مجتمع هذه صفته فيرحل .

قال : ((النَّزَّاعُ مِنَ الْقَبَائِلِ)) ؛ والمراد : الفارّون بدينهم ، ينزع من قبيلته، يرحل ، يغترب ، يترك الوطن والأهل والأولاد والقراة فراراً بدينه ، يبحث عن مكانٍ يبقى ويجاهد نفسه فيه على سلامة دينه ، ويجد نفسه في بقاءه في مجتمعه الذي أنكر دينه فيه بقاءه يترتب عليه ضعف دينه ورقته ، فيريد علماً ، يريد أهل علم ، يريد أهل صلاح واستقامة يصبر نفسه معهم ويجالسهم ليحافظ على دينه ، وقد قال الله تعالى : ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨] ؛ أمره ﷺ بالصبر ثم قال في تمام الآية : ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ ، فيكون راحلاً للبحث عن وطنٍ يجد

فيه قرار دينه وزيادة إيمانه وقوة يقينه وحسن صلته بالله وفقهه في دين الله ، هؤلاء هم النزاع من القبائل؛ يستنكر دينه في وطنه ويجد أموراً عمت وطمت في وطنه ليست من دين الله ؛ إما شبهات منحرفة أو شهوات متبعة والدين في ضياع ، فينزع أي يرحل بحثاً عن دينه .

قال : ((النُّزَاعُ مِنَ الْقَبَائِلِ)) ؛ هذا أحد الأحاديث الذي ورد في تفسير الغرباء - وهو من أصح ما ورد في هذا الباب - يعني الذي يرحل من بلده ويتحمل عناء الغربة . الإنسان إذا كان بين أهله وقرباته وجيرانه أموره المعيشية أهون ، لأنه قد يذهب إلى بلادٍ يصعب عليه أمر المعاش فيها وربما يتعسر عليه أمر المعاش فيها ويجد معاناةً في هذا الباب فلا يبالي ولا يهتم ؛ لأن أمر دينه أهم وصلاح دينه ألزم عنده فلا يبالي بذلك ، قال ((النُّزَاعُ مِنَ الْقَبَائِلِ)) وهذا يدل على أن أعظم شيء استحکم في قلوبهم العناية به والاهتمام هو دينهم ؛ ولهذا لا يبالي، يرحل ويغترب ويترك الوطن مع حبه له ، والأهل مع حبه لهم وحرصه عليهم ، يرحل في سبيل حفظ دينه . قال : ((النُّزَاعُ مِنَ الْقَبَائِلِ)) ؛ هذه رواية وفيها تفسير للغرباء .

قال : ((وفي رواية: الْغُرَبَاءُ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ)) ؛ يصلحون : أي بالتمسك بالسنة والدين الصحيح . والصلاح يكون بتعلم الدين ومعرفته والمحافظة عليه ، مثل ما مر معنا قريباً في كلام أبي العالية الرياحي العظيم ؛ فيكون ذلك بإصلاح النفس بتعلم الدين والمحافظة عليه والثبات عليه إلى الممات . ((إِذَا فَسَدَ النَّاسُ)) أي : بإتباع الأهواء وإتباع الشهوات ، فيكون الناس اهتماماتهم متجهة إلى أهوائهم أو جرفتهم الشبهات وحرفتهم عن دينهم ، ويكون هو صالحاً في وسط هذا الفساد .

قال : ((ورواه أحمد من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وفيه : فَطَوْبَى يَوْمَئِذٍ لِلْغُرَبَاءِ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ)) ؛ وهذا بمعنى الرواية التي قبلها ، طوبى للغرباء : أي أهل الصلاح ، ولم يُذكر لدلالة السياق عليه .

قال : ((وللترمذي من حديث كثير ابن عبد الله عن أبيه عن جده ((فَطَوْبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ سُنتِي)) ؛ وهذا المعنى دلائله كثيرة وشواهد عديدة ، ومن شواهد الآية التي صدر بها المصنف رحمه الله الترجمة ﴿أُولَئِكَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ ؛ ينهون عن الفساد في الأرض أي : بالإصلاح فيها وإنكار المنكر وإنكار الفساد ، وهذا المعنى شواهد كثيرة جداً ، والآيات التي فيها فضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله والأحاديث الواردة في هذا الباب كلها شواهد على هذا المعنى .

فهذه المعاني التي ذكر المصنف : «النُّزَاعُ مِنَ الْقَبَائِلِ» ، «الَّذِينَ يُصْلِحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ» ، «الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ» كلها صحيحة ، وكلها أوصاف صحيحة لأهل الغربة جُمعت في سورة العصر ؛ قال الله تعالى : ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا

بِالصَّبْرِ ۖ فَجَمَعُوا بَيْنَ صِلَاحٍ فِي أَنْفُسِهِمْ ، وَجَدَّ وَاجْتِهَادٍ فِي إِصْلَاحِ مَجْتَمَعِهِمْ ، وَصَبَرَ عَلَى ذَلِكَ وَمَا يَنَالُهُمْ مِنْ أَدَى فِيهِ ، وَقَدْ جَاءَ عَنِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ قَالَ : « كَفَى بِهَذِهِ السُّورَةِ حِجَّةً عَلَى النَّاسِ » لِأَنَّهَا جَمَعَتْ الْأَوْصَافَ الَّتِي يَكُونُ بِهَا السَّلَامَةُ مِنَ الْخُسْرَانِ ، لِأَنَّ مِنْ سِوَى الْغُرَبَاءِ فِي خُسْرَانٍ ، مُتَفَاوَتِينَ فِي حُجْمِ الْخُسْرَانِ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ ، وَلَا يَنْجُو وَلَا يَسْلَمُ إِلَّا الْغُرَبَاءُ ، وَالْغُرَبَاءُ السَّالِمُونَ مِنَ الْخُسْرَانِ هُمُ أَهْلُ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْمَذْكُورَةِ فِي سُورَةِ الْعَصْرِ .

وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في رسالته التي في المجلد الثامن عشر من مجموع فتاواه أن الغربة قد تكون في بعض شرائع الدين وقد تكون أيضاً في بعض الأمكنة ؛ يعني تذهب إلى بلد من بلدان المسلمين وأنت تعرف أن هذا البلد كان من منارات الإسلام ومن البلدان التي كثر فيها العلم والعلماء وكان لهم قوة ونشاط ، وتقرأ أحياناً بعض الكتب المختصة بتراجم أهل العلم من أهل بلدان معينة ، ثم تذهب إلى ذلك البلد فتري غربة ، وترى الذي انتشر في الناس أموراً خلاف الدين ، فالغربة قد تكون في مكان وقد تكون في أعمال ؛ يعني تجد أعمال من الدين غريبة بين الناس . ولعله يلاحظ أن بعض الناس قد تُذكر له سنة من السنن فيسمع بها أول مرة فيستغرب ، وربما ذُكرت السنة لجماعة من الناس فيستغربونها أجمعين ، وربما حلفوا قالوا والله ما سمعنا بهذا من قبل ، وهي سنة ثابتة عن النبي ﷺ !! لكنها أصبحت غريبة بين الناس بسبب قلة العلم وضعفه ودروسه بين كثير من الناس .

فالغربة قد تكون في مكان؛ بحيث إذا بقي الإنسان في مكان يجد غربة وإذا انتقل إلى مكان آخر لا يجد غربة بل يجد أمثاله من أهل السنة المحافظين عليها كثير ، وأحياناً تشتد الغربة في الأمكنة حتى جاء عن سفيان الثوري رحمه الله أنه قال : « إذا بلغك عن رجل في أقصى المغرب وهو من أهل السنة فابعث إليه بالسلام » ، فقد تشتد الغربة وقد يكون في وطنه وحيداً .

على كلٍّ هذه أوصاف جاءت في روايات الأحاديث في وصف الغرباء ، وما ذكره المصنف هنا هو أصح ما ورد في الباب ، وقد جاءت أحاديث أخرى في تفسير الغرباء فيها ما هو أسانيد ضعيفة وفيه ما أسانيد واهية جداً .

قال :

وعن أبي أمية قال : سَأَلْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ الْخُسَيْنِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَيْفَ تَقُولُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ ؟ قَالَ : أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ سَأَلْتُ عَنْهَا حَبِيرًا ، سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : ((بَلْ اتَّبِعُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتُمْ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤَثَّرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ ؛ فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ وَدَعْ عَنْكَ الْعَوَامَّ ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّابِرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَابِضِ عَلَى

الْجُمُرِ ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ أَجْرٌ حَسِينٌ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ)) ، قلنا: مِنَّا أَوْ مِنْهُمْ ؟ قَالَ : ((بَلْ مِنْكُمْ))
رواه أبو داود والترمذي .

قال رحمه الله : ((وعن أبي أمية قال : سَأَلْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ الْحُشَنِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَيْفَ تَقُولُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾؟)) ؛ قد يفهم بعض الناس عندما يقرأ هذه الآية أن المراد بها أن
اشتغال الإنسان بإصلاح نفسه فقط دون اجتهادٍ منه في إصلاح من حوله يكفيه ولا يضره. ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ
ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ أي إذا صلحت في نفسك واستقامت ليس عليك في الناس من صلح منهم ومن استقام ؛ وهذا
مفهوم خاطئ وليس هو مراد الآية .

لأن قوله ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ من الهداية التي لا يضر الإنسان إذا ضل الناس إذا كان هو مهتدياً ، من الهداية المطلوبة:
الدعوة والأمر والنهي ، وهي من هدايات القرآن وهدايات السنة ، وهي هداية مطلوبة من العبد ؛ فتركها لها ترك
لجزء من الهداية ؛ لأن الأمر والنهي هداية ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا
أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧] ؛ فالأمر والنهي جزء من الهداية وهو داخل فيها . فقوله ﴿لَا يَضُرُّكُمْ
مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ من الهداية : الأمر والنهي والدعوة إلى دين الله تبارك وتعالى ؛ هذا من وجه .

ومن وجه آخر : أن دعوة صاحب الحق إلى الحق من وسائل حفظ الهداية التي عنده ، وقد قيل : «إذا لم تدعو
تُدعى» ، فدعوة الإنسان إلى الحق الذي من الله ﷻ عليه به فيه حفظٌ للهداية التي أكرمها الله ﷻ بها ، فمن
وسائل حفظ الهداية في الشخص أن يدعو الناس إليها ، وإن لم يكن كذلك أصبح هدفاً لدعوة الناس ومستهدفاً
من دعاة الضلال .

قال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ سألته عن هذه الآية كيف يقول في
معناها ؟ قال : ((أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ سَأَلْتُ عَنْهَا خَبِيرًا)) ؛ ولم يقل ذلك تركيةً لنفسه ، وإنما قالها ليطمئن سائله بالعلم
الذي أكرمها الله ﷻ به في هذا الأمر ، فإذا قال الإنسان في مسألة ما أو في موضوع ما "هذه المسألة أنا عندي
خبرة بها درستها شهور مثلاً " هذا لا يكون تركية ؛ إلا إذا أراد في نيته تركية نفسه ولاحظ الرياء والشهرة وهذه
المعاني ((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ)) ، أما إذا كان مقصوده النصح للناس وطمأنة قلوبهم لتحصيل الفائدة فهذا ليس
من التركية .

قال : ((لَقَدْ سَأَلْتُ عَنْهَا خَبِيرًا ، سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ)) ؛ ولاحظ الخبرة التي عنده في هذه المسألة علمٌ
بالسنة ، مما يبين لك أن علم الصحابة هو هذا ، ولو لم يكن عنده هذا السؤال لما قال سألت عنها خبيراً ، ومن

الناس من لا يكون عنده علم بالسنة ويعدّ نفسه خبيراً ؛ فيخوض في كلام الله وفي كلام رسوله عليه الصلاة والسلام بغير علمٍ وغير فهم .

قال : ((سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : بَلْ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ)) ؛ أي ليس معنى قوله ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ليس هذا مراد الآية بل مراد الآية : ((بَلْ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ)) .

((حَتَّى إِذَا رَأَيْتُمْ شُخًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤَثَّرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ))؛ يعني يلزم الإنسان شأن نفسه في مثل هذه الحال ؛ ما هي ؟

قال أولاً : ((إِذَا رَأَيْتُمْ شُخًّا مُطَاعًا)) ؛ والشح : هو بخل الإنسان الذي ملأ قلبه وأصبح في سيره في حياته أسير بخله ، يطيع بخل نفسه ولم يوق شح نفسه بل أصبح مطيعاً لما امتلأ به قلبه من البخل . ومن كان بهذه الصفة لا يلتفت إلا إلى بخل نفسه وشحّها أين أذنه التي ستسمع وستصغي وقد سيطر على قلبه شحُّه وبخله ؟! ((وَهَوًى مُتَّبَعًا)) أيضاً سيطر عليه أمر آخر وهو إتباع الأهواء ، تجارت به الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه ، فرمته في أودية الضلال ومواضع الهلكة .

((وَدُنْيَا مُؤَثَّرَةً)) ؛ اهتمام الناس منصرف إلى الدنيا ليس لديهم اهتمام بالدين وليس عندهم وقت للدين والعناية به . دُنْيَا مُؤَثَّرَةٌ يعني آثرتها القلوب وأقبلت عليها النفوس . ((وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ)) ؛ يصبح أصحاب الآراء كلٌّ منهم معجب برأيه ، وإذا بُيِّنَتْ له السنة أنكرها لمخالفتها لرأيه ، وهو معجب برأيه فينكر السنة لكونها مخالفة لرأيه .

((وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ)) ؛ والله ﷻ يقول : ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى: ٩] ، فإذا صار الإنسان في حال يصل فيها من حوله بهذه الصفات قال : ((فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ وَدَعْ عَنْكَ الْعَوَامَّ)) يعني دع عنك خلطتهم ، الزم نفسك بالحفظ لدينك والمحافظة عليه ومجاهدة النفس على الاستقامة عليه .

((وَدَعْ عَنْكَ الْعَوَامَّ ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّاماً الصَّابِرُ فِيهِنَّ -أي على دينه- مِثْلُ الْقَابِضِ عَلَى الْجُمْرِ))؛ لأن القابض على الجمر يحس بألم من قبضه على الجمرة ، وكذلك المحافظ على الحق يجد مثل هذا الإحساس من شدة العنت والخصومة وإنكار الناس له وتسفيههم له وطعنهم فيه إلى غير ذلك ؛ فيكون فيها كالقابض على الجمر لاستحكام أو لشدة الغربة التي يعيشها بين الناس .

قال : ((لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ أَجْرٌ حَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ)) ؛ فأراد الصحابة الاستفصال عن قوله ((مِثْلَ عَمَلِكُمْ)) هل المراد مثل عمل الصحابة؟ أو مثل عمل من جاء بعدهم ؟

قال : ((قلنا منّا - أي الصحابة - أَوْ مِنْهُمْ ؟ قَالَ بَلْ مِنْكُمْ)) ؛ أي من الصحابة .

قال أهل العلم وذلك لأن هؤلاء الذين بهذه الصفة غرباء ينصرون الدين وهو متجه إلى مزيد من الغربة ، والصحابة نصروا الدين وهو متجه إلى الخلاص من الغربة ، وكل يوم والإسلام يحقق انتصارات وعزاً ورفعة وكثرة داخلين فيه . وأيضاً نبّه العلماء أن هذا لا يعني تفضيلهم على الصحابة ، بل ما حازه الصحابة من السبق ونصرة النبي عليه الصلاة والسلام ولزومه وأخذ الدين عنه فهذه أمور لا يقارنهم فيها من جاء بعدهم ، قد قال عليه الصلاة والسلام في حديث آخر: ((لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدًّا أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ)) ، فالأمر الذي حازه الصحابة والفضائل التي حازها الصحابة هذه لا يلحقهم فيها أحد ممن جاء بعدهم ، فالصحابة لهم فضل مخصوص لا يناله من جاء بعدهم . فقلوه ((لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ أَجْرٌ خَمْسِينَ رَجُلًا)) لا يعني تفضيل هؤلاء على صحابة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام .

قال :

وروى ابن وضاح معناه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، ولفظه : ((إِنْ مِنْ بَعْدِكُمْ أَيَّامًا الصَّابِرُ فِيهَا الْمُتَمَسِّكُ بِمِثْلِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ الْيَوْمَ لَهُ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ)).

ثم أورد هذه الرواية عند ابن وضاح في كتابه «البدع والنهي عنها» وهو مطبوع قال : وروى ابن وضاح معناه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، ولفظه : ((إِنْ مِنْ بَعْدِكُمْ أَيَّامًا الصَّابِرُ فِيهَا الْمُتَمَسِّكُ بِمِثْلِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ الْيَوْمَ لَهُ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ)) ؛ وتأمل هنا وصفاً للغرباء قال : ((المتمسك بمثل ما أنتم عليه اليوم)) ؛ فالغريب هو الذي يتمسك بمثل ما كان عليه الصحابة ، وهذا المعنى دل عليه قول النبي ﷺ وقد تقدم عندما ذكر الافتراق قال: ((كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً قَالُوا وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي)).

قال :

أنبأنا محمد ابن سعيد قال أنبأنا أسد قال أنبأنا سفيان ابن عيينه عن أسلم البصري عن سعيد أخي الحسن يرفعه قلت لسفيان : عن النبي ﷺ ؟ قال نعم ، قال : ((إِنَّكُمْ الْيَوْمَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ أَمْرِكُمْ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتَجَاهِدُونَ فِي اللَّهِ وَلَمْ تَظْهَرِ فِيكُمْ السُّكْرَتَانِ : سُكْرَةُ الْجَهْلِ ، وَسُكْرَةُ حُبِّ الْعَيْشِ ، وَتَسْتَحْوِلُونَ عَنْ ذَلِكَ وَلَا تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَا تَجَاهِدُونَ فِي اللَّهِ وَتَظْهَرُ فِيكُمْ السُّكْرَتَانِ ، فَالْمُتَمَسِّكُ يَوْمَئِذٍ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَهُ أَجْرُ خَمْسِينَ قِيلَ مِنْهُمْ؟ قَالَ : لَا بَلْ مِنْكُمْ)).

ثم أورد هذه الرواية التي ساقها ابن وضاح بسنده عن سعيد أخي الحسن البصري يرفعه أي إلى النبي عليه الصلاة والسلام وهو مرسل ؛ سعيد أخي الحسن إلى النبي ﷺ هذا مرسل. قال : ((قلت لسفيان عن النبي ﷺ ؟ قال نعم)) .

قال : ((إنكم اليوم على بينة من أمركم)) ما هي هذه البينة ؟

قال : ((تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتجاهدون في الله ، ولم تظهر فيكم السكرتان سكرة الجهل وسكرة حب العيش)) ؛ هذا الآن بيان لوصف الحالة التي كان عليها الصحابة رضي الله عنهم وبيان للدين الصحيح ، والدين الصحيح : هو ما كان عليه النبي ﷺ وصحابته ، فكانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويجاهدون في الله ، ولم تظهر فيهم السكرتان سكرة الجهل وسكرة حب العيش .

((سكرة الجهل وسكرة حب العيش)) ؛ أن يمشي الإنسان في هذه الحياة في سكرة جهله يخوض فيما يخوض فيه من ضلال بسبب سكرة الجهل التي تسيطر عليه . وأيضا يخوض فيما يخوض فيه من شهوات بسبب سكرة حب العيش الذي يسيطر عليه ، فهو بين سكرتين سيطرتا عليه : سكرة جهل وسكرة حب عيش ، فإذا وجدت هاتان السكرتان لا تسأل حينئذ عن هلكة الإنسان ، جاهل ويحب الدنيا وهي أكبر همه !! ماذا ستكون حال من كان كذلك ؟ من سيطرت عليه هاتان السكرتان ؟

قال : ((وستحولون)) ؛ أي ستتغير الأمور تتبدل عن ذلك ، ماذا سيكون ؟ عكس المتقدم .

((فلا تأمرون بالمعروف ولا تنهون عن المنكر ولا تجاهدون في الله وتظهر فيكم السكرتان)) ؛ أي تفشو فيكم وتنتشر هاتان السكرتان : سكرة الجهل وسكرة حب العيش .

ثم نصح النبي عليه الصلاة والسلام ما ينبغي أن يكون عليه المسلم في مثل هذه الحال قال : ((فالمتمسك يومئذ بالكتاب والسنة له أجر خمسين . قيل منهم ؟ قال لا بل منكم)) ؛ منكم : أي من الصحابة .

هذه الرواية وإن كان فيها ضعف فالمصنف لم يذكرها في هذا الباب اعتماداً وإنما ذكرها استثناساً لما فيها من معاني صحيحة ولما فيها من توضيحات ، فهي ليست كلاماً يُرفع إلى النبي عليه الصلاة والسلام ولكنه كلام درج عند أهل العلم ، مثله مثل أقوال أهل العلم ، فهو فيه معاني صحيحة قوية مفيدة تفيد في تفسير هذا الباب وليست هي كلاماً للنبي عليه الصلاة والسلام ، لهذا جرت عادة العلماء ذكر ما لا يشتد ضعفه من المراسيل أو مثلاً فيه ضعف يسير أوفيه راوٍ ضعيفٌ حفظٌ أو نحو ذلك ؛ يذكرونها على سبيل الاستثناس لا على سبيل الاعتماد .

ولو تأملت هذا الحديث ليس عمدة في هذا الباب ، العمدة في الباب مر ؛ آيات وأحاديث اتضح بها المقصود ولكن هذه روايات يُستأنس بذكرها لا أنها عمدة الباب ، وإذا تأملت المعاني التي فيها فشواهدا مبسوطا في الكتاب والسنة ، كم في القرآن من الأدلة الدالة على خطورة الجهل ؟ وكم في القرآن والسنة من الأدلة الدالة على خطورة حب الدنيا والتهالك ورائها والانشغال بها ؟ فهذا المعنى ليس معنى العمدة فيه هذا الحديث ، وكذلك ترك

الأمر بالمعروف وترك النهي عن المنكر وترك الجهاد ليس العمدة فيه هذا الحديث ، وإنما العمدة نصوص أخرى واضحة بيّنة ، فيكون ذكر هذا على وجه الاستئناس ، وأمثال هذه الأحاديث تُذكر للاعتضاد لا للاعتماد ، وتُذكر للاستئناس بها لا لكونها عمدة في الباب ، وهذا نهج معروف عند أهل العلم من قديم ، يذكرون أمثال هذه الأحاديث من مرسلٍ ضعيف أو فيه راوٍ خفيف الضبط أو فيه ضعف أو نحو ذلك للاستئناس بذكرها .

قال :

وله بإسناد عن المعافري قال : قال رسول الله ﷺ : ((طوبى للغرباء؛ الذين يمسيّكون بكتاب الله حين يُترك، ويعملون بالسنة حين تُطفئ)).

وهذا مثل ما سبق ساقه المصنف رحمه الله ليستأنس بذكره ، لأن المعنى الذي فيه معنى صحيح في وصف الغربة .

قال : ((طوبى للغرباء)) من هم ؟

قال: ((الذين يمسيّكون بكتاب الله حين يُترك ويعملون بالسنة حين تُطفئ)) يعني يُطفئ نورها بين الناس ولا يكون للناس بها معرفة ، فإذا بلغ الناس هذا الحال ووُجد من هو متمسك بالكتاب والسنة فهو الغريب ، وهذا المعنى الذي دل عليه هذا الحديث في تفسيره الغربة دلت عليه النصوص المتقدمة .

هذه الترجمة عموماً ترجمة عظيمة جداً في بيان الغربة -غربة الدين- التي توجد في الناس بسبب كثرة الجهل وغلبة الأهواء والانشغال بالدنيا وحفظ النفس والإعراض عن دين الله ﷻ ، وأورد المصنف رحمه الله فضل الغرباء الذين يتمسكون بالدين ويحافظون عليه ويدعون إليه حال تخلي أكثر الناس عنه وحال تفريط كثير من الناس به ، وأن فضلهم عند الله ﷻ عظيم وثوابهم جزيل ، قد ساق من النصوص والشواهد ما يدل على ذلك ، وساق أيضاً من النصوص تفسير الغرباء ومن هم الغرباء .

ولعلك تلحظ فيما ساقه المصنف وفي طريقته رحمه الله النهج الذي أُلحِث إليه ؛ نهج السلف الصالح رحمهم الله ، فالمصنف شأنه كائنة السلف لا يُحمِلُ فكراً أو رأياً أو تصوراتٍ ابتكرها وأنشأها ودعا إليها أو أخذ يدعو إليها ، وإنما دعوته إلى دين الله ﷻ ، ولهذا لما تكلم عن الغربة وفضلها ذكر تفسيرها بسوق الروايات التي تفسّر لنا ما هي الغربة ، وترى في الناس من يأتي ويتحدث عن الغربة وغربة الدين ليوظفها لآرائه وأفكاره ويسوّد صفحاتٍ كثيرة يبت فيها فكراً نشأ عليه أو رأياً درج عليه ثم يوظف الأحاديث ، هذه ليست طريقة أهل الحق . وانظر هذه الصفحة الواحدة التي سطرها المصنف رحمه الله في الكلام عن الغربة تغنيك عن مطولات ، لأنها جمعت خلاصة الأمر وزبدة الموضوع ، ففي باب الغربة يكفيك هذا الذي ذكره المصنف ، خلاصة وافية وكافية من جهة ذكر

الغربة ووجودها ، وذكر فضل الغرباء وثوابهم ، وذكر أعمال الغرباء وصفاتهم ؛ كلها اجتمعت لك في هذه الخلاصة التي سطرها المصنف رحمه الله في صفحة واحدة .

وإذا قرأت أيضاً ما ساقه هنا لا تجد له فيه كلمة واحدة ، لم يذكر كلمة واحدة ، لو كان يحمل رأياً معيّنة أو أفكاراً معيّنة أو توجهات معيّنة لبثها في كتبه ؛ لكن ليس في كتبه إلا الآيات والأحاديث ؛ ومع ذلك يشن عليه دعاة الضلال ودعاة الباطل حملات شعواء يسألهم عنها رب العالمين يوم القيامة لصدهم عن دين الله وصدهم عن حملته من أئمة السنة ودعاة الحق والهدى ومن أصلح الله تبارك وتعالى بهم دينه جل وعز .

وهذا الإمام - أعني الشيخ محمد ابن عبد الوهاب رحمه الله - إمام من أئمة أهل السنة وداعية من دعاة الحق والهدى ، وكتبه التي صنفها كلها داعية إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ قائمة على الآية والحديث والمأثور المروي من كلام السلف الصالح ، ثم كذبوا عليه وافتروا عليه كذباً يسأله عنه رب العالمين يوم القيامة، ورموه بعظائم لا يوصف بها أحاد المسلمين! حتى إن بعضهم قال إثمًا وزورا أنه لا يصلى على رسول الله ، وقال آخرون : لا يحب آل بيت رسول الله ، وقال آخرون .. وقال آخرون ؛ كلمات ترمى هنا وهناك في الصد عن هذا الحق الذي يدعو إليه هذا الإمام .

ولهذا من وفقه الله ﷻ من هؤلاء فقرؤوا كتبه وجدوا كذب الدعايات التي بُثت والباطل الذي أشيع ، رجل ليس عنده في كتبه إلا النصح والدعوة لدين الله ﷻ ، ولهذا لما نقرأ الآن «فضل الإسلام» لهذا الإمام لا نرى له فيه كلام ، لو كان يحمل مذهباً خامساً أو يحمل فكراً أو يحمل كذا إلى آخره لبثه في كتبه ، وأولئك اكتفوا في حال هذا الرجل بدعاية بُثت بثها أعداء الدين من الكفار الأصليين ومن المنتسبين للدين من خصوم الدين وخصوم الدعوة ، لكن من وفقه الله ﷻ وقرأ ما كتبه من هذه الآيات وهذه الأحاديث لوجد حقاً .

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .